مدخل إلى الرسائل الرعائيّة

الخوري نعمة اللّه الخوري
باحث في الكتاب المقدّس

تدلّ التسمية "الرسائل الرعائيّة"[1] على تلك التي وجّهها بولس إلى تلميذَيه تيموتاوس وتيطس، طالبًا منهما الاهتمام بالرعيّة، ومزوّدًا إياهما بالتعليمات الضروريّة لتنظيم الكنائس؛ إنّها رسائل لأنها شبيهة بهيكليّة الرسائل الأخرى، فتبدأ باسم المُرسِل والمُرسَل إليهم، وتنتهي بالسلامات والتحيّات الأخيرة. في بداية القرن السابع عشر (١٦٠٩)، سمّاها اليسوعي كوسماس ماغاليانوس (Cosmas Magalianus) "رسائل حبريّة"، ولكنّ التسمية "رعائيّة" هي التي سيطرت في ما بعد، حين أطلق باردو (D. N. Bardot) عام ١٧٠٣، لأوّل مرّة، تسمية "رعائيّة" على الرسالة إلى تيطس، ثمّ تبعه أنطون (P. Anton)، فأسند هذه التسمية، عام ١٧٢٧، إلى الرسائل إلى تيموتاوس وتيطس، لأنّها تعرض كيفيّة اختيار الخدّام في الكنائس، وتشير إلى طبيعة وظيفتهم، وتُحدّد الفضائل التي يجب أن يتحلّوا بها.

سنعرض في هذا "المدخل إلى الرسائل الرعائيّة" مسائل تاريخيّة ونقديّة ولاهوتيّة تساعدنا على التعرّف عن كثب على الرسائل المُوجّهة إلى تيموتاوس وتيطس، حيث أنّها تتميّز عن سائر الرسائل البولسيّة.

أولاً: تيموتاوس وكنيسة أفسس

وُلِد تيموتاوس (يعني اسمه: "مَن يخاف الله") في لسترة من أبٍ وثنيّ وأمّ يهوديّة (٢ تم ١، ٥). في الرحلة الرسوليّة الثانية، أثناء مرور بولس في لسترة عام ٥٠، رافقه تيموتاوس بعد ان انفصل عنه مرقس. كان أهل فريجية متشدّدين بتطبيق الشريعة اليهوديّة، لذلك أرسله بولس إليهم بعد أن ختنه (اع ١٦: ٣) رغبةً منه في أن يكون يهوديًا مع اليهود (١ كور ٩: ٢٠). سنجد تيموتاوس في مكدونية ثمّ في أثينا (اع ١٧: ١٤– ١٥) وفي كورنتوس (اع ١٨: ٥)، وقد ساهم في جمع التبرّعات لكنيسة أورشليم (اع ٢٠: ٤).

هذا التلميذ هو الأكثر شهرة بين كلّ معاونيّ بولس؛ يُذكَر اسمه في بداية ستّ رسائل (٢ كور، فل، كول، ١– ٢ تس، فلم)، وقد وضع عليه بولس اليدين بالرغم من صغر سنّه (١ تم ٤: ١٢ و١٤؛ ٢ تم ١، ٦). كان مسؤولاً عن كنيسة أفسس حيث طلب منه الرسول أن يُثبّت الناس هناك في التعاليم الصحيحة (١ تم ١: ٣؛ رج اع ١٩: ٢٢)؛ قام بمهمّات

(١) حول الرسائل الرعائيّة بشكل عام راجع:

بولس الفغالي، "الرسائل الرعاويّة الثلاث"، في: **المدخل الى الكتاب المقدّس**، الجزء الخامس، المكتبة البولسيّة، ١٩٩٥، ص ٣٢٥– ٣٤٠.

P. Dornier, *Les épîtres pastorales*, Sources Bibliques, Gabalda, Paris, 1969.
C. Spicq, *Les épîtres pastorales*, 2 tomes, Études Bibliques, Gabalda, Paris, 1969.
Idem, "Pastorales (Épîtres)", *DBS*, Fasc. 36, col. 1-73, Paris, 1961.
E. Cothenet, *Les épîtres pastorales*, Cahiers Évangile 72, Cerf, Paris, 1990.

صعبة: أرسله بولس إلى تسالونيكي (١ تس ٣: ٢-٦)، وطلب منه أن يُذكّر الكورنثيّين بتعاليمه (١ كور ٤: ١٧؛ ١٦: ١٠-١١؛ رج اع ١٩: ٢١ ي)، وكلّفه بالذهاب إلى فيلبي ليَطمئنّ قلبُه عن أهلها (فل ٢: ١٩-٢٤). مدحه رسول الأمم لأنّه ساعده في البشارة كما يساعد الابن أباه (فل ٢: ٢٢)، وختنه لأنّ أمّه كانت يهوديّة، الأمر الذي يساعد التلميذ على دخول المجامع (اع ١٦: ٣). جاء إلى روما، فزار بولس المُشرف على الموت في سجنه (٢ تم ٤: ١٩-٢١).

ثانيًا: تيطس وكنيسة كريت

تيطس هو تلميذ حقيقيّ لبولس في الإيمان (تي ١: ٤)، مثلما كان تيموتاوس (١ تم ١: ٢)، لذلك كلّفه الرسول مهمة الحفاظ على تعاليمه. لا نملك معلومات وافية عن تيطس ونحن نستغرب كيف يتجاهله كتاب الأعمال بالرغم من الاحترام الذي يكنّه له بولس! هو مسيحيّ من أصل وثنيّ، رافق بولس إلى أورشليم (غل ٢: ١-٣) في المرحلة الحسّاسة من الصراع حول ضرورة ختان الوثنيّين؛ اعتنق الإيمان ولم يفرض عليه الرسول الختان (غل ٢: ٣). قام بمهمّات مستعصية، فنجح في إنهاء الأزمة بين بولس وكنيسة كورنتوس، واستطاع أن يُعيد الجماعة إلى التوبة، واعترف بولس بأهمّية هذا الدور (٢ كور ٧: ٦ي). كُلّف بجمع التبرّعات لكنيسة أورشليم المنكوبة (٢ كور ٨: ٦) نظراً للثقة التي نالها (٢ كور ١٢: ١٧-١٨). لقّبه بولس "الرفيق والمعاون" (٢ كور ٨: ٢٣)، و"الأخ المحبوب" (٢ كور ٢: ١٣)، وهو تلميذ نزيه ومترفّع (٢ كور ١٢: ١٨). سيقوم هذا التلميذ بمهمّة رعويّة في دلماطيا (٢ تم ٤: ١٠).

أرسله بولس إلى جزيرة كريت، وهي جزيرة يونانيّة كبرى في البحر المتوسّط، ليُنظّم هناك الكنيسة الناشئة ويُقيم الشيوخ (تي ١: ٥)، وهذا هو المكان الوحيد، في العهد الجديد، الذي يُشير إلى تبشير هذه الجزيرة إذا استثنينا وجود أهل هذه الجزيرة في أورشليم يوم العنصرة (اع ٢: ١١).

ثالثًا: إدراج الرسائل الرعائيّة ضمن الرسائل البولسيّة

في تاريخ تكوين مجموعة الرسائل البولسيّة، تأخذ الرسائل الرعائيّة مكاناً منفصلاً؛ فهي لا تظهر في المخطوط شيستر بيتي ٤٦ (p46)، كما أنّ المخطوط ٣٢ (p32)، الذي كُتب حوالى العام ٢٠٠، يذكر منها المقاطع التالية فقط: تي ١: ١١-١٥؛ ٢: ٣-٨. مرقيون، وهو أوّل من جَمَع الرسائل البولسيّة مبتدئاً بالرسالة إلى غلاطية، يجهل هذه الرسائل، ولكنّه أهمل أيضًا أناجيل متّى ومرقس ويوحنا؛ ذَكَرَت اللائحةُ القديمةُ للكتابات المفروضة في القراءة الليتورجيّة في الكنيسة (قانون موراتوري، حوالى ١٨٠) الرسائلَ البولسيّة المُوجّهة إلى الكنائس السبع، وبعد ذلك تُضيف فتقول إنّ الرسالة إلى تيطس والرسالتين إلى تيموتاوس لها طابع مقدّس لأنّها كُتِبَت لتعظيم الكنيسة الكاثوليكيّة ولتنظيم الكنائس فيها، وهذا دليل على أنّ كنيسة روما عرفت هذه الرسائل باكرًا. تظهر الرسائل الرعائيّة كاملة في المخطوط السينّائي والإسكندراني. في مقدّمة كتابه **ضدّ الهراطقة** (*Adv. Haer.*, III, 14, 1)، استند إيريناوس إلى سلطة بولس لينقض الغنوصيّة في عصره مستشهداً بنصٍ مأخوذ من ١ تم ١: ٤.

رابعًا: صحّة نسبة الرسائل الرعائيّة إلى بولس

طُرحَت مسألة كاتب الرسائل الرعائيّة استناداً إلى الأسلوب والمفردات التي تختلف عن سائر الرسائل، فنُسب إلى أحد تلاميذ بولس تدوين هذه الرسائل أو الجزء الأكبر منها، في حين أنّ بعض الشرّاح لا يزالون يتمسّكون بصحّة نسبة هذه الرسائل إلى بولس.

١- الرسائل الرعائيّة هي رسائل بولسيّة

قبل بداية القرن التاسع عشر، لم يظهر في الكتابات المسيحيّة أيّ اعتراض على صحّة نسبة الرسائل

الرعائيّة إلى بولس، فاعتُبِرَت وكأنّها ملحق للرسائل الأخرى؛ نجد فيها الإطار العام الذي كانت تُكتَب فيه الرسائل في ذلك العصر: التوجيه في البداية، صلاة الشكر (في ٢ تم فقط)، التحيّات في النهاية؛ ترد فيها إشارات حسّية تُلمّح الى أحداث تاريخيّة تعود إلى الرسول: كما هي الحال في المراسلات الخاصّة، تكثر فيها الأخبار الشخصيّة: قليل من الخمر للصحّة (١ تم ٥: ٢٣)؛ الرغبة في رؤية تيموتاوس من جديد (٢ تم ١: ٤)؛ ذِكر فِيجِلُّس وهرموجينيس اللّذَين يجهلهما العهد الجديد (٢ تم ١: ١٥)؛ لائحة اسميّة بالعديد من التلاميذ المعاونين لبولس (٢ تم ٤: ١٠- ١٢)؛ طَلَبُ المعطف المتروك في طرواس (٢ تم ٤: ١٣)؛ إشارة الى سَفر عالِم الشريعة زيناس وأبلّوس (تي ٣: ١٣). اعتبرت النظريّة التقليديّة أنّ هذه المعطيات التاريخيّة الواردة في الرسائل الرعائيّة تُشكّل برهانًا على صحّة نسبة هذه الرسائل إلى بولس حيث لا يُمكن إقحام معلومات شخصيّة وتاريخيّة ضمن رسالة مُدوَّنة بعد فترة طويلة من وفاة الرسول.

من ناحية أخرى، يعتبر المدافعون (سبيك Spicq، ودورنييه Dornier) عن صحّة نسبة الرسائل الرعائية إلى بولس أنّ تغيير النبرة والأسلوب في هذه الرسائل لا يعود إلى كونها مُدَوَّنة في فترة زمنيّة متأخّرة، بل يُمكن فهمه على ضوء تقدّم الرسول في السن وخبرته الرعوية ومواجهته ظروف وحضارات جديدة، ولا عجب إذا لاحظنا أنّ هذه الرسائل ترد في كتابات اكليمندس الروماني (حوالى ٩٥)، وإغناطيوس الإنطاكي (حوالى ١١٠)، وبوليكاربوس (حوالى ١٣٥)، وقد استندوا إليها مثلما استشهدوا بالرسائل البولسيّة الأخرى.

٢- الرسائل الرعائيّة غير بولسيّة

لاحظ شميت (Schmidt)، في عام ١٨٠٤، أنّ النوع الأدبيّ لهذه الرسائل يختلف عن سائر الكتابات البولسيّة الكبرى، فتبعه نقّاد آخرون أمثال رنان Renan، ديبيليوس Dibelius، بولتمان Bultmann، كومّل Kummel، فاستندوا جميعًا إلى التعابير والمفردات التي تتميّز بها الرسائل الرعائيّة ليؤكّدوا أنّ أحد تلاميذ بولس، في نهاية القرن الأوّل، أخذ على عاتقه مهمّة الدفاع عن إرث الرسول، فدوّن هذه الرسائل ليتهجّم على اعترافات المعلّمين الكذبة.

تجهل الرسائل الرعائيّة عددًا كبيرًا من الكلمات البولسيّة التي تُشدّد عليها الرسائل الأخرى: لا تظهر الإشارات إلى الصليب، ولا نجد فيها الصراع بين الجسد والروح؛ كذلك الأمر، تتضمّن هذه الرسائل خصائص متعدّدة تميّزها عن رسائل بولس الكبرى حيث تعوّدنا على البراهين المنطقيّة التي يستعملها بولس ليؤكّد حقائق إيمانيّة أساسيّة تتعلّق بالتبرير بالإيمان (رومانيّين) وقيامة الأموات (١ كورنتوس) وغيرها؛ تغيب هذه التوسّعات اللاهوتيّة عن الرسائل الرعائيّة التي تعرض اعترافات الإيمان في أجواء الجدال مع الهرطقات دون أن نتمكّن من معرفة تلك الهرطقات بوضوح. ونشير أيضًا إلى أنّ الرسائل الرعائيّة تعالج مسائل التنظيمات الرعوية والعقائد المغلوطة والآداب المسيحيّة بالعودة إلى أسلوب متميّز وفريد يعرفه العالم اليوناني.

من ناحية أخرى، بدأ هاريسون (Harrison) عام ١٩٥٦ أعماله الإحصائيّة، فلاحظ وجود ٣٠٥ كلمات تستعملها الرسائل الرعائيّة، وهي لا تظهر في الرسائل البولسيّة الأخرى (يُسمّي النقّاد هذا الواقع: هاباكس نسبي، Hapax relatif)، وأحصى ١٧٥ كلمة يجهلها العهد الجديد (يُسَمّى هذا الواقع: هاباكس مُطلق، Hapax absolu).

هذه المعطيات دفعت هؤلاء الشرّاح إلى الاعتقاد أنّ بولس المُعْتَقَل في السجن، وهو مُكبّلٌ بالسلاسل (٢ تم ١: ٨ و١٦؛ ٢: ٩) لا يستطيع شخصيًّا أن يُدوِّن هذه الرسائل؛ لذلك يجب التفكير بكاتب متأخّر توسّع، بأسلوبه الخاص، في الخطوط العريضة لتعليم الرسول، وأقحم الإشارات التاريخيّة لتبرير تقليد يعود إلى بولس رغبة منه في الحفاظ عليه، وقد تطرّق هذا الكاتب إلى مواضيعه على ضوء ظروف جديدة ومتغيّرة. هكذا نستطيع أن نفهم المزايا والسمات التي تتميّز بها الرسائل

الرعائيّة مع تقدّم الكنيسة في الزمن، حيث أضحى الإنجيل في مرحلة تقتضي بأن يشهد المؤمنون له بواسطة الإيمان والأفعال.

لا يتبع المدافعون عن صحّة نسبة الرسائل الرعائيّة إلى بولس موقفًا مُوَحّدًا، وهم يعترفون أنه، إذا كانت الرسائل الثلاث تأتي من كاتب واحد، ولكنّها ليست مُتشابهة: إنّ للرسالة الأولى إلى تيموتاوس وللرسالة إلى تيطس عدّة موضوعات مُشتركة، في حين أنّ ٢ تم تبدو وكأنّها وصيّة يوجّهها بولس إلى أحد تلاميذه، وهذا دليل على وجود عدّة كتّاب لهذه الرسائل.

بعد أن عرضنا الموقفَين المتقابلَين حول صحّة نسبة الرسائل الرعائيّة، نشير إلى أنّ عدّة شرّاح (نذكر من بينهم: سبيك، دورنييه) لا يزالون يعتقدون أنّ الرسول دوّن الرسالة الأولى إلى تيموتاوس والرسالة إلى تيطس، بدون شكّ من اليونان أو من مكدونية، بين عامَي ٦٤ و٦٧؛ هم يعتبرون أنّه، للمرّة الأولى، يتمّ التعبير عن الآداب المسيحيّة بواسطة كلمات تنتمي إلى الأدب الهلّينيّ؛ قبل الرسائل الرعائيّة، صاغ الرسول لاهوته بالاستناد إلى اليهوديّة، وفي ارتباط مع أنبياء العهد القديم؛ لكنّ المسيحيّة اندمجت في العالم اليوناني الذي تتميّز ثقافته عن الإرث اليهوديّ، لذلك طُرحَت حاجة إلى التفكير بالإيمان على ضوء تعابير مأخوذة من الذهنيّة اليونانيّة. من ناحيته، لاحظ دورنييه أنّنا لا نستطيع الاستناد إلى وجود كلمات خاصة (هاباكس) بالرسائل الرعائيّة لننفي أبوّة الرسول عنها؛ فإذا طبّقنا هذه الطريقة في التفكير على الرسائل الأخرى، سنضطرّ الى إسنادها، هي بدورها، إلى كاتب من القرن الثاني.

خامسًا: الروزنامة البولسيّة في الرسائل الرعائيّة

كيف انتهت حياة بولس التبشيريّة بعد تحريره من الأسر الذي وقع فيه في روما بين عامي ٦١ و٦٣ (اع ٢٨: ٣٠)؟

١- تدوين الرسائل الرعائيّة بعد التحرّر من السجن في روما

تُقدّم لنا الرسائل الرعائيّة معطيات سيرويّة وتاريخيّة مهمّة تساعدنا على طرح تصوّر للروزنامة البولسيّة التي توقّفت في نهاية كتاب الأعمال. يرى سْبِيك أنّ بولس، بعد تحرّره من الأسر في روما عام ٦٣، ربّما توجّه إلى أسبانيا (روم ١٥: ٢٣- ٢٨)؛ بعد عودته إلى كريت، أوكل إلى تيطس مهمّة تنظيم الكنيسة في هذه الجزيرة (تي ١: ٥)، وتوجّه إلى نيكوبوليس ليمضي هناك فصل الشتاء (تي ٣: ١٢)، ثمّ عاد إلى أفسس. سلّم كنيسة أفسس إلى تيموتاوس (١ تم ١: ٣)، وتوجّه إلى مقدونية، ومن هناك كتب الرسالة الأولى إلى تيموتاوس والرسالة إلى تيطس بين عامي ٦٤ و٦٥، نظرًا للتقارب الأدبيّ الوارد في هاتين الرسالتَين.

أُرغِم بولس على ترك أفسس نهائيًّا، فأرسل إليها تيخيكس (٢ تم ٤: ١٢)، وأثناء مروره في ترواس، عند كاربوس، نسيَ هناك معطفه وبعض الكتب (٢ تم ٤: ١٣)؛ من المحتمل أن يكون أبحر بعد ذلك إلى ميليتس (٢ تم ٤: ٢٠) حين تركه تروفيمس المريض الذي لم يستطع متابعة السفر. ربما أُسِر بولس ثانية في آسيا الصغرى (ترواس أو أفسس)، ونُقِل أسيرًا إلى روما حيث شعر أنّ موته قريب، ومن المفترض أن يُدوِّن ٢ تم، عام ٦٧، بعد أن تركه أهل آسيا يموت وحيدًا.

هذه المعطيات تفترض أنّ بولس تحرّر من الأسر في سجن روما (اع ٢٨: ٣٠)؛ يؤكّد أوسابيوس، في تاريخه الكنسي أنّ بولس عاد مرة ثانية إلى روما حيث أنهى حياته بالاستشهاد: "بعد أن دافع عن قضيّته، ترك الرسول روما لينطلق إلى البشارة من جديد، ثمّ عاد إلى هذه المدينة مرّة ثانية حيث استُشهد. في تلك الفترة، حين كان مُكبّلاً بالسلاسل، دوّن الرسالة الثانية إلى تيموتاوس حيث تكلّم على موته القريب... نلاحظ أنّ استشهاد بولس لم يتمّ أثناء الأسر الذي أشار إليه كتاب الأعمال الذي دوّنه لوقا. من المحتمل أن

يكون نيرون متسامحاً في بداية حكمه، وربما دافع عن قضيّة بولس وعن تعليمه" (**التاريخ الكنسي** ٢/ ٢٥، ٢– ٨).

هذا يعني أنّ بولس مات في روما عام ٦٧. في هذا الإطار، نستطيع أن نفهم عبارة إكلمندس الروماني: "بعد أن علّم الحقّ للعالم أجمع، وبعد وصوله إلى أقصى الغرب، وشهادته أمام الولاة (٢ تم ٤: ٧)، ترك بولس العالم" (١ كليمندس ٥: ٧).

نشير إلى أنّ هذا التصوّر للروزنامة البولسيّة يفترض تنقّلات متعدّدة للرسول ومعاونيه، ذهاباً وإياباً، ومن الصعب قبول بعض هذه الاقتراحات نظراً لتقدّم الرسول في السن (الرسالة الى فيلمون المكتوبة قبل الرسائل الرعائيّة بقليل تعرض بولس الشيخ؛ فلم ٩)، وعجزه عن القيام بهذه الرحلات الطويلة أثناء فترة زمنيّة قصيرة.

٢– تدوين الرسائل الرعائيّة أثناء الرحلات الرسوليّة

في سبيل تجاوز الصعوبات الواردة في الاقتراحات التي تفترض تدوين الرسائل الرعائيّة بعد نهاية كتاب الأعمال، اعتبر بعض النقّاد أنّه يجب قلب هذه المعطيات، فوضعوا تدوين الرسائل الرعائيّة ضمن الروزنامة التي يعرضها كتاب الأعمال، وذلك بين الرحلة الرسوليّة الثالثة والأسر في قيصريّة أو روما (ريك Reicke، روبنسون Robinson، دي ليستابيس S. de Lestapis). هذا التصوّر يفترض أنّ سكرتير بولس دوّن هذه الرسائل بعد أن أخذ تفويضاً من الرسول القابع في السجن لكي يكتب بحريّة.

تُعيد الروزنامة التي تقترحها هذه النظريّة بناء حياة بولس بين عامَي ٥٤ و٦١ (دي ليستابيس) أو بين عامَي ٥٠ و٥٨ (روبينسون)، وترتكز إعادة البناء هذه على دمج، بطريقة احتماليّة وغير مؤكّدة، ثلاث معطيات تاريخيّة مأخوذة من الرسائل البولسيّة ومن كتاب الأعمال، ومن الرسائل الرعائيّة.

لا تأخذ إعادة البناء هذه بعين الاعتبار مسألة تعيين الأساقفة، وتنظيم الكنائس التي نجدها في الرسائل الرعائيّة، وتتجاهل أيضاً التطوّرات، في التعليم العقائدي، التي يجب أن تُنسَب إلى نفس المؤلّف. هذه الصعوبات التي تصطدم بها الروزنامة المقترحة لا تستطيع أن تعرض تصوّراً متكاملاً يتضمّن تدوين الرسائل البولسيّة في إطار تنقّلات الرسول بين المدن التي بشّر فيها.

هل دوّن بولس الرسائل الرعائيّة قبل الأسر في روما أم بعده؟ لم يتوصّل الشرّاح إلى نتيجة ممكنة نظراً لتضارب بعض المعطيات التاريخيّة التي تزوّدنا بالمعلومات عن تنقّلات الرسول. ولكن ليس لهذا الغموض أيّة قيمة ملحوظة؛ فنحن لا نهتمّ بكيفيّة تنقّلات الرسول (بالرغم من أهمّيتها) لأنّ حياته كلّها كانت شهادة حيّة للمسيح القائم من الموت، في حين أنّ بعض الإشارات التاريخية تصبّ في هذا المسار.

سادساً: تطوّر اللاهوت البولسي في الرسائل الرعائيّة

لماذا تنفرد الرسائل الرعائيّة في ذكر موضوعات ومسائل تجهلها الرسائل الأخرى؟ ما هو سبب تغيير المفردات والأسلوب، مع العلم أنّ الفترة الزمنيّة التي انتهى فيها تدوين الرسائل الكبرى (٥١–٦٠) ليست بعيدة عن تاريخ تدوين الرسائل الرعائيّة؟

عرَضنا أعلاه أنّ بعض الشراح وجدوا حلاً لهذه المشكلة، فاعتبروا أنّ هذه الرسائل دُوِّنت بعد وفاة الرسول بفترة ملحوظة من الزمن، غير أنّ المدافعين عن صحّة نسبة الرسائل الرعائيّة إلى بولس ينظرون إلى هذا الواقع من زاوية أخرى.

يختصر دورنييه أهمّ الخصائص التي تتميّز بها الرسائل الرعائيّة عن سائر الرسائل البولسيّة، على الشكل التالي:

١– الإيمان أضحى عقيدة، في الرسائل الرعائيّة، في حين أنّ الرسائل الأخرى تعتبر الإيمان بشكل رباط حيّ بين المسيح والمؤمن.

٢– تشدّد الرسائل الرعائيّة على ضرورة القيام بالأعمال الصالحة أكثر من تركيزها على "العيش بحسب الروح".

٣- ترتكز الحياة المسيحيّة، في الرسائل الرعائيّة، على التقوى ومعرفة الحق.
٤- يحقّق الروح، في حوض العماد (تي ٣: ٥)، الولادة الجديدة للإنسان.
٥- لا تظهر المحبّة، في الرسائل الرعائيّة، وكأنّها الفضيلة المثلى بل وكأنّها فضيلة تشبه سائر الفضائل.
٦- تتدخّل النعمة لتسند الجهود البشريّة وتساعدها على بذل المستطاع للتقرّب من الله.

لا يرى دورنييه تناقضًا جذريًا بين الرسائل الرعائيّة والرسائل الأخرى؛ فالمواضيع هي متشابهة تقريبًا، ولكن يمكن الاعتبار أنّ نقطة الارتكاز انتقلت وتغيّرت. إنّ تغيير النبرة والمفردات والتعابير هو نتيجة طبيعيّة تدلّ على خبرة الرسول أثناء رحلاته وأسفاره، وتعدّديّة الأوضاع التي تمرّ بها الكنائس، والموضوعات الجديدة المطروحة للبحث.

سابعًا: لاهوت الرسائل الرعائيّة

تتضمّن الرسالة الأولى إلى تيموتاوس والرسالة إلى تيطس موضوعات لاهوتيّة مشتركة، فتُشدّد على ضرورة مقاومة المعلّمين الكذبة، وتعرض تنظيم الكنائس، وتتميّز بإسناد ألقاب مُحدّدة إلى المسيح، وتنفرد عن سائر كتابات العهد الجديد باستعمال تعابير خاصّة بها؛ سنتطرّق إلى هذه المسائل بطريقة عابرة، وسنُهمل الرسالة الثانية إلى تيموتاوس لأنّها تبدو وكأنّها آخر وصيّة روحيّة يقدّمها بولس إلى تلميذه، مع العلم أنّ هذه الرسالة ستحظى لاحقًا بعدد خاص بها.

١- التقوى ومعرفة الحق

التقوى هي وضعيّة المؤمن العابد، وهي ليست مجرّد انحناء أثناء الصلاة، بل هي قوّة داخليّة تعمل جاهدة لتغيير الحياة؛ فالتصرّف الخارجي لا معنى له إذا لم يكن تعبيرًا عن نشاط الروح. أمّا عبارة "معرفة الحق" فهي لا تشير إلى معرفة نكتسبها بواسطة قوى العقل الذاتيّة، وتتعلّق مباشرة بالإيمان الذي يربطنا بالله الذي نتعرّف إليه فنحبّه ونتوق اليه.

تستعمل الرسائل الرعائية بتواتر (١٢ مرة) كلمة "التقوى = أوسيبيا" (١ تم ٣: ١٦؛ ٤: ٧- ٨؛ ٦: ٣ و٥ و٦ و١١؛ ٢ تم ٣: ٥؛ تي ١: ١)، وهذه الكلمة ترد نادرًا في العهد الجديد (اع ٣: ١٢؛ ٢ بط ١: ٣- ٧؛ ٣: ١١)؛ هذا يعني أنّ الرسائل الرعائيّة تُشدّد على استعمال هذا "الهاباكس" النسبيّ نظرًا لأهمّيته بالنسبة إلى كاتبها، مع العلم أن عبارة "معرفة الحق" هي بدورها خاصّة بالرسائل الرعائية إذا استثنينا ظهورها في الرسالة إلى العبرانيّين (عب ١٠: ٢٦).

تؤكّد مقدّمة الرسالة إلى تيطس على التلازم بين "معرفة الحق" والتقوى: "من بولس عبد الله ورسول يسوع المسيح لِيهدي الذين اختارهم الله إلى الإيمان وإلى معرفة الحق الموافقة للتقوى على رجاء الحياة الأبديّة" (تي ١: ١)؛ هناك وجهتان للعلاقة بين معرفة الحق والتقوى: الأولى تعتبر أنّ معرفة الحقّ لها ميزة أساسيّة، وهي العيش في التقوى، والثانية تعتبر أنّ معرفة الحقّ تقود إلى التقوى؛ في الحالة الأولى، تتطابق معرفة الحق مع التقوى، في حين أنّه، في الحالة الثانية، تختلف معرفة الحق عن التقوى، لأنّ الأولى توصل المؤمن إلى الثانية.

يطلب الرسول من تيموتاوس أن يُروّض نفسه بالتقوى (١ تم ٤: ٧- ٨)؛ فعليه أن يتمثّل بالمتبارزين الذين يبذلون جهودًا جبّارة أثناء ممارسة الرياضة والتدرّب على فنونها؛ تتطلّب الحياة المسيحيّة جهودًا وصراعات وامتناعًا عن شهوات مُحدّدة في سبيل الحصول على الفائدة المرجوّة، وهي إكليل الظفر المُتمثّل في الحياة الأبديّة. غير أنّ المعلّمين الكذبة يبتعدون عن التقوى الحقيقيّة (٢ تم ٣: ٥).

باختصار تهدف الرسائل الرعائيّة الى إشراك المؤمنين في الخلاص الأبدي، ويُمكن الوصول إلى هذا الهدف من خلال اتّباع التقوى التي تتطابق مع الحياة الأبديّة نفسها، لأنّ مقدّمة الرسالة إلى تيطس (١: ١- ٢) تُشدّد على العلاقة

بين التقوى والحياة الأبديّة: التقوى هي أساس الرجاء بالحياة الأبديّة، ونحن نجد صدىً لهذا الواقع في ١ تم ٤: ٨ "في التقوى كلّ الخير، لأنّ لها الوعد بالحياة الحاضرة والمستقبلة".

٢- التنظيم الكنسي

أرسل بولس تلميذَيه تيموتاوس وتيطس إلى أفسس وكريت ليُثبّتَا المؤمنين هناك، وقلّدهما سلطة كاملة، وطلب منهما أن يُعلّمَا الإيمان المستقيم (تي ٢: ٨؛ ٢ تم ٢: ١٥)، وأن يختارَا الأساقفة والشيوخ والشمامسة، لأنّ نموّ الكنيسة السريع يتطلّب زيادة المسؤولين عليها. إنّ الوظيفة الأساسيّة لخدّام الكلمة هي التبشير (١ تم ٥: ١٧)، وعليهم أن يتسلّموا العقيدة (٢ تم ٢: ٢؛ رج لو ١٢: ٤٨؛ ١ تم ١: ١٨)، والمفروض أن يكونوا أشخاصًا موثوقًا بهم، لذلك يجب أن يكون تيموتاوس حذرًا أثناء اختيار المسؤولين على الكنائس (١ تم ٥: ٢٢)، وينبغي عليه أن يجمع الشهادات حول المدعوّين إلى هذه الوظيفة الكنسيّة (١ تم ٣: ٧)، وبعد ذلك يستطيع أن يحكم شخصيًّا على هذا الاختيار (١ تم ٣: ٢- ١٢؛ تي ١: ٦- ٩).

إنّ الألقاب التي تُسندها الرسائل الرعائيّة إلى المسؤولين عن الكنيسة هي بمعظمها مجهولة من الرسائل البولسيّة الكبرى، وهذه الألقاب هي مزيج مأخوذ من التعليم البولسي السابق (أساقفة، شمامسة، فل ١: ١)، ومن اليهو- مسيحيّة (الشيوخ، اع ١١: ٣٠؛ ١٤: ٢٣؛ ١٥: ٢٢؛ يع ٥: ١٤)، ومن كتاب الأعمال (الشيوخ، الأساقفة، اع ٢٠: ١٧ و٢٨)؛ في الرسائل الرعائيّة، لا تتضّح العلاقة بين لقبَي "الشيخ" (١ تم ٥: ١ و٢ و١٧ و١٩؛ تي ١: ٥) و"الأسقف" الذي يُستعمَل دائمًا في حالة المفرد (١ تم ٣: ٢؛ تي ١: ٧)، كما أنّنا نجد إشارة إلى الأسقفيّة (١ تم ٣: ١). نلاحظ أنّ وظيفة المسؤولين عن الكنيسة، في هذه الرسائل، هي ثلاثيّة: ترؤّس الاجتماعات، تعليم كلمة الله، ورفض العقائد المغلوطة من خلال السهر على الإيمان[٢].

لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ الرسائل الرعائيّة تُميّز بشكل واضح بين شعب الله، من جهة، وبين الشيوخ المسؤولين، من جهة أخرى، وهذا يفترض أن تكون الكنيسة وصلت إلى مرحلة متقدّمة من حياتها، وربما استند بعض النقّاد إلى هذا الواقع ليبرهنوا أنّ الرسائل الرعائيّة دُوِّنت بعد وفاة الرسول.

٣- الهرطقات

نجد في الرسائل الرعائيّة الثلاث تشديدًا على ضرورة مقاومة المعلّمين الكذبة. يعتبر كَرِّيس[٣] أنّ المقاطع التي تعالج هذه المسألة تستعيد رسمة تقليديّة يستعملها الفلاسفة في معرض مجادلاتهم مع السفسطائيّين: يريد الكاتب التأكيد على أن تعليمه هو حكمة حقيقيّة وعقيدة سليمة تختلف تمامًا عن تعليم خصومه الهراطقة والمتحزّبين (تي ٣: ٩).

يبدو أنّ هؤلاء الخصوم هم يهو- مسيحيّون يعلّمون الشريعة (١ تم ١: ٧؛ تي ٣: ٩)، ويُشدّدون على أساطير اليهود (١ تم ١: ٤؛ ٤: ٧؛ تي ١: ١٤؛ ٢ تم ٤: ٤)، وعلى الأنساب والسلالات التي لا نهاية لها (١ تم ١: ٤؛ تي ٣: ٩)، ويُحرّمون الزواج (١ تم ٤: ٣)، ولا يحترمون نظام تحريم بعض الأطعمة (١ تم ٤: ٣- ٥). هم يعتبرون أنّ القيامة في اليوم الأخير تحقّقت (٢ تم ٢: ١٨).

تؤكّد الرسائل الرعائيّة أنّ الهراطقة لا يزالون موجودين ضمن الجماعة المسيحيّة، ولم يُفصَلوا عنها إلاّ في الحالات القصوى، وذلك بعد تلقّيهم الإنذار مرّة أولى وثانية (تي ٢: ١٠)،

(٢) راجع: A. LEMAIRE, *Les ministères aux origines de l'Église*, LD 68, Paris 1971, p. 123-138.

(٣) راجع: R. J. KARRIS, «The Background and Significance of the Polemic of the Pastoral Epistles», *Catholic Theological Union* 92 (1973) 549-564.

وهذه إشارة الى أنّ هذه الرسائل دُوِّنَت في القرن الأول للمسيحيّة، في أيّام الرسول، لأنّ كنيسة القرن الثاني حسمت مسألة الهراطقة وطردتهم نهائيًّا من الجماعة المُصلّية. ولكن هناك رأي آخر اقترحه بور (F. C. Baur) الذي يفترض أنّ هؤلاء الهراطقة ينتمون الى الغنوصيّة التي عرفها القرن الثاني، وبشكل أدقّ المرقيونيّة، ولكنّ أصول الغنوصيّة، في تلك الحقبة، كانت لا تزال غامضة ولا يُمكن التأكيد أنّها نشأت قي القرن الثاني.

٤- الكرستولوجيا في الرسائل الرعائيّة

احتفظت رسائل الأسر (فيليبي، كولوسي، أفسس) بنشائد كرستولوجيّة تُعظّم المسيح الخالق والموجود منذ الأزل، في حين أنّ الرسائل الرعائيّة لا تهتمّ بشخص المسيح، بل تُشدّد على دوره في تحقيق الخلاص، وتؤكّد أنّه "الوسيط" الوحيد بين الله والناس (١ تم ٢: ٥)؛ كذلك نجد إشارة، في هذه الرسائل، إلى أصل المسيح الداودي (٢ تم ٢: ٨) الذي قدّم ذاته لأجل خلاص الخطأة (١ تم ١: ١٥؛ ٢: ٦؛ تي ٢: ١٤).

تحتفظ الرسائل الرعائيّة بالعقائد الإيمانيّة الأساسيّة: التجسّد (١ تم ٣: ١٦)، الآلام في عهد بيلاطوس البنطي (١ تم ٦: ١٣)، القيامة من بين الأموات (٢ تم ٢: ٨)، والتجلّي الأخير أثناء الدينونة (٢ تم ٤: ١)؛ لعلّ هذه العقائد الأساسيّة تُشكّل نواة لقوانين الإيمان التي ظهرت في الكنيسة الأولى.

من ناحية أخرى، تُشدّد الرسائل الرعائيّة على لقب "المُخلّص"، ونجد إشارات الى عبارة مُميَّزة هي: "الله مُخلّص" (تي ٢: ١٠ و١٣؛ ٢ تم ١: ٩)، فتُطَبَّق هذه العبارة أحيانًا على الآب، وأحيانًا أخرى على المسيح: "مُنتظرين الرجاء السعيد وظهورَ مجدِ إلهنا العظيم ومُخلّصنا يسوع المسيح (تي ٢: ١٣)؛ في كلّ الرسائل البولسيّة، لا يُطلق لقب "الله" على يسوع إلاّ في الرسالة إلى الرومانيّين (٩: ٥)، ولكنّنا سنجد إسناد لقب "الله" إلى يسوع في مواقع أخرى (عب ١: ٨ ي؛ يو ١: ١ و١٨؛ ٢٠: ٢٨؛ ١ يو ٥: ٢٠؛ ٢ بط ١: ١)، وسيُضحي هذا اللقب متداوَلاً انطلاقًا من إغناطيوس الإنطاكي. حين تُسند الرسائل الرعائيّة لقب "المُخلِّص" إلى الآب والابن في آنٍ معًا، فهي تُؤكّد على الوحدة في العمل بينهما في سبيل خلاص البشر.

خاتمة

تختلف الرسائل الرعائيّة عن سائر الرسائل المُوجّهة إلى الجماعات المسيحية في الكنائس؛ فهي رسائل شخصيّة تتضمّن تحذيرات قاسية للتلميذَين وتحريضات على التقوى؛ ولكن، بالرغم من كونها تتوجّه إلى أشخاص، فإنّها تتميّز بطابع كنسي: ستُقرأ تعليمات الرسول أمام الأساقفة، الشيوخ، الشمامسة، الرجال والنساء، العجائز والشبان، العذارى والأرامل، العبيد والأسياد. يستند معاونو بولس إلى تعليماته ليستعملوا سلطتهم في إدارة الكنائس.

لعبت الرسائل الرعائيّة دورًا ملحوظًا في النقاشات المعاصرة حول الخدمة الكهنوتيّة والوظائف في الكنيسة، لأنّها تُشكّل النواة والمعين الذين يستند إليه الباحثون لكي يتمكّنوا من صياغة نظريّاتهم وأبحاثهم حول الوظيفة الكهنوتيّة.